

## تأديب نفس !!

صلى أحد العارفين القدر الذي يصلية كل ليلة ، وما كاد الخيط الأبيض يبدو في السماء ، حتى أخذ منه التعب والجهد مأخذاً كبيراً ، ونال منه الإرهاق والضعف نيلاً دفعه إلى الاستلقاء على الأرض ؛ ليسترد قواه المضمحلة ، وعزيمته الكليلة الواهنة . . .

لقد بقي الليل كله قائماً لله ، يصلي حيناً ، ويقرأ من كتاب الله ، ما يشرح الصدر ، ويغذي الروح ، ويطمئن القلب ، ويمكنه من التدبر في معانيه ، والتفكير فيما يرمى إليه ويحويه ! .

هذا الليل الذي ينام فيه الناس ، ويجد كل منهم متعة جسمه ، ولفة بدنه ، لا يحظى منه بشيء من هذا ، وإنما يرى فيه ميداناً للعبادة ومجالاً للاستزادة ، وحافزاً للتمتع بالقرب من الله ، والإقبال عليه ، والاستجابة لداعى الآخرة ، حيث لا ينفع الإنسان إلا ما قدمت يداه ، وتوفر فيه صفاء الطوية ، وإخلاص النية ، وسمو الغاية ، ونبل المقصد . . .

وخاف أن يدركه الغرور ، وهو باب من أبواب الشر ، يخشاه العارفون كل الخشية ، ويفرون منه فرارهم من فواتك الأسود ، وضواري السباع ، ولا يألون جهداً في تهذيب نفوسهم ، وتأديبها على الدوام ، ما وسهم الجهد ، وواتهم الطاقة ، وهم بما يلاقون في سبيل تأديب نفوسهم يوردها إلى الخير جد سعداء ..

والنفس عند العارفين كالطفل الغرير ، لا يعرف الخير من الشر ، لهذا يجب ألا يترك وشأنه ؛ ينال كل ما يريد ، ويحصل على ما يهوى ، فإن مطالبه لا تنفذ ، ولا تقف رغباته عند حد ، ومن الخير له وللناس أن يحال بينه وبين هذه الرغبات ، ولا يعطى منها غير الصالح المفيد . . .

ولهذا قال قائلهم :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تظمه ينظم  
ولن يتهاون أحدهم مع نفسه إذا وقعت منها مخالفة ، ويحاكمها محاكمة دقيقة ؛ وكأنها شخص آخر ، يفهم ويدرك ، ويتكلم ويخاطب ، ويجب أن ينال نصيبه من التعنيف والتأديب ، وإلا صارت شهوانية حيوانية ، لا يردعها رادع من دين أو خلق ، ولا يزعها وازع من حق أو ضمير .. !!

\* \* \*

وذات مرة حينما شعر هذا العارف بالتعب والإضناء ، وكان في ذلك الوقت جالساً في المحراب ، مد رجله فيه ، ليستجم قليلاً ، حتى إذا ما شعر بالراحة والاستجمام ، قام من فوره يتابع صلاته ، ويدميم قراءته وتلاوته .. ولكنه ما كاد يفعل ذلك حتى نودي من وراء الغيب ؛ في رهبة وعظمة ، وجبروت وكبرياء :

« أهكذا تجالس الملوك .. ؟ ! »

ودوَّى هذا الصوت في أذنيه دويًا مخيفًا ، ووجد له في قلبه صدى ملك عليه جميع حواسه ومشاعره ؛ في قوة وعنف ، وكأنه عقاب أليم ، وتهديد صارم ، لا عتاب رقيق رقيق .. !!

حقا إنه ليس من الأدب أن يمد رجله هكذا في الحراب ، حيث يتجه  
بوجهه إلى الكعبة ؛ مكان الرحمة والعتو ، والبركات والرحمات ، والتعجيلات  
الغامرة ، وموطن العبادة والتقديس ..

يا لله ! أهكذا يبرهن على سوء أدبه مع ربه ، ولا يراعى آداب العبادة ،  
وحقوق الحراب الذى يضع فيه جبهته ، ويتجه فيه إلى ربه بكل قلبه ،  
ويتجرد من الدنيا وما فيها ، معرضا عن لذاتها ، زاهدا في شهواتها ، غير  
آبه بكل ما فيها ؛ لأنها تصرفه عن ربه ، وعن العبادة الصحيحة ، والاتجاه  
الحق ، الذى يشترط فيه التجرد من العباد وأمانى العباد ، ولا يكون في  
القلب غير الله وما يريد ، وبغير هذا لا تنفع عبادة العارفين ..

وأخذ الصوت يدوى في عنف وقسوة ، هدّت بدن هذا العارف ،  
الضئيل البدن ، والنحيل الجسم ، وكادت تمزق قلبه تمزيقا شديدا ، فهذا  
من سوء الأدب مع الله ، والجهل بما يجب له من الإجلال :  
أهكذا تجالس الملوك .. !!

لا ما هكذا تجالس الملوك ، لقد أخطأت يارب ، وأسأت الأدب ،  
وجاوزت الحد ، فأسألك العفو والمغفرة .. إنها النفس يارب ، المحبولة على  
الشر ، وسوء الأدب ، والمطبوعة على المخالفة والعصيان ، وإنتى مقصر كل  
التقصير ؛ إذ اندفعت معها ، وأنلتها ما تريد ، في حين أنتى مأمور بمخالفتها  
ومجاهدتها ، حتى يستقيم أمرها ، ويصلح شأنها ، وتصبح نفسا ربانية ، ليس  
لها حظ في الدنيا ، من متعة ولذة ، إلا متعة القرب منك يارب العالمين ،  
والحظوة برضائك وعفوك ، ومحبتك الخالصة .. !!

إن النفس تجرى بطباعها في ميدان المخالفة ؛ فإذا لم يردّها العبد عن

هذه الغاية ، ويحكم قيادتها والسيطرة عليها ، أفلت الزمام من يده ، وناله من جرّاء ذلك الشر الماحق ، وانخطر الداهم ، والدمار المبير .. فيجب على العبد أن يرد نفسه بحسن مطالبتها دائماً بالرجوع إلى الخير ، فإن أبت ذلك ، حملها عليه حملاً ، وأخذها به أخذاً شديداً ، فمن أعرض عن الجهاد في سبيل النفس ، فقد أطلق لها العنان ، وغفل عن الرعاية ، فسرعان ما توردته موارد الهلكة والبوار .. !

\* \* \*

وضم العارف رجله ، وقد شعر بأنها خدرت ، وكأنما أصبحت منفصلة عن بدنه ، وخيل إليه أن قطعها أهون عليه من ذلك العتاب الشديد ، والتأنيب المهين الذي استمع إليه ، يهتف به صوت القدر من جانب الغيب ، فعكر صفوه ، وكدر خاطره ، وآلمه أشد الإيلام ..

ولكن هذا لا يكفي ، ولا بد أن يعمل عملاً يعاقب به هذه النفس التي أعطتها شهوتها ، ومنحها رغبتها ، وأرخص لها الزمام .. يجب أن يؤذّبها فوراً ، حتى تتذكر الله الذي غفلت عنه ، وجاوزت حدوده ، وتهاونت فيما لا يصح التهاون فيه ، ولهذا هتف قائلاً في عزم :

— وعزتك وجلالك ؛ لامددت رجلى أبداً .. !

وبرّ هذا العارف بقسمه ، ونفذ ما صمم عليه دون تهاون ولا تقصير ، ولم يبق هكذا طوال حياته لا يمد رجله إلى أية ناحية ، ليعطى بدنه راحته ، وجسده حرّيته ، وظل رافعاً على نفسه سوط العذاب ..

وهو يروى الجنيداً عنه : أنه بقي ستين سنة ما مد رجله ليلاً ولا نهاراً .. !